كتاب السياسة

للوزير نظام الملك

للدكتور عبد الوهاب عزام

نظام الملك أبو على الحسن بن اسحاق : وزير السلاجقة من أعظم الوزراء الذين عرفهم تاريخ الإسلام . وزر للسلطان محمد ألب أرسلان ، ثم لابنه ملكشاه ثلاثين سنة (٤٥٥ — ٤٨٥) هـ .

كان أبوه أحد دهاقن طوس ، وذهبت بماله الحادثات فوُلد نظام الملك فى بيت فقير سنة ٤٠٨ . وماتت أمه وهو رضيع . ونشأ نجيباً زكياً فتعلم العربية والفقه وسمع الحديث . وتقلبت به صروف الزمان فى أرجاء الأرض ، حتى استقر فى بلخ عند أحد عمّال داود والد السلطان ألب أرسلان . ثم تولى أعمال ألب أرسلان ووزر له قبل السلطنة . فلما خلف ألب أرسلان عمّه طغرل بك دبّر نظام الملك أمور الدولة ، وظهرت كفايته ، وشاع ذكره ؛ فاستقل بسياسة الملك طوال عهد ألب أرسلان وعهد ابنه ملكشاه. وتولى أبناؤه ، وكانوا اثنى عشر ، المناصب الرفيعة فى الدولة . فتمكن سلطانهم ، وعظم جاههم ، وانقادت لهم الأمور حتى فاقوا البرامكة فى أيامهم .

يقول ابن الأثير :

« كان عالماً جواداً عادلاً حليما كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت . كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء ، وأئمة المسلمين ، وأهل الخير والصلاح . أمر ببناء المدارس فى سائر الأمصار والبلاد ، وأجرى لها الجرايات العظيمة ، وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وغيرها . وكان يقول : إنى لست من أهل هذا الشان ، ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطا نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وما زالت الأمور فى تصريفه ، والأحوال موالية له، إلى أن قتل سنة ٤٨٥ .

وذلك أنه كان مسافراً مع السلطان ملكشاه من أصفهان إلى بغداد ، فنزلا على مقربة من نهاوند . قال ابن الأثير :

« فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إفطاره ، وخرج فى محفة إلى خيمة حرمه أتاه صبى ديلمى فى صورة مستميح

أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه ، فقضى عليه وهرب ، فمر بطنب خيمة فأدركوه فقتلوه » .

وقد شاع بين الناس أن الملاحدة دبروا لقتله إذ كان يبغضهم وكتب فى كتابه سياستنامه فصلاً فى بيان مفاسدهم . ويقال إن ملكشاه هو الذى أوحى بقتله وكان قد نقم منه ومن أولاده تمكنهم فى عظم المناصب ، وجاههم ، وأوغرت صدره عليهم امرأته تُركان خاتون ، وكانت تسعى ليخلف ابنها الطفل محمود أباه على الملك ، وكان نظام الملك يؤثر بركيا روق أخا محمود الأكبر . إذ يقال إن جمال الملك بن نظام الملك قتل مسخرة للسلطان كان يحاكى نظام الملك فى المجلس السلطانى ، فنقم عليه السلطان وأمر من دس له السم فى شربة فقاع

ويروى ابن الأثير أن السلطان أرسل أحد قواده شحنة إلى مرو وكان يتولى أمورها حينئذ عثمان بن جمال الملك ومفيد نظام الملك . فوقع نزاع بين الشحنة وعثمان فحبسه عثمان ثم أطلقه فذهب إلى السلطان شاكياً ؛ فأرسل السلطان إلى نظام الملك يسأله أأنت شريكى أو وزيرى ويذكر استيلاء أبنائه على المناصب وتجاوزهم الحد

فلما بلغت الرسالة الوزير الكبير غضب وقال للرسول « قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأيى . أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمت الخوارج عليه ... فلما قدت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الذنوب ويسمع فىّ السعايات ا قولوا له عنى إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة[1] وأن اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك[2] . »

ومن عجائب الاتفاق أن السلطان مات بعد شهر من قتل الوزير واضطربت الدولة اضطراباً شديداً

ومهما يقل من أسباب النفور التى وقعت بين السلطان والوزير فأنا أبعد أن يدبر الملك لقتل وزيره الشيخ الذى كان يثق به ويعتمد عليه ويستصحبه فى حضره وسفره .

(١) يعنى أن تاج السلطان مدعوم بدواة الوزير فاذا زالت وزارته زالت السلطنة .

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٤٨٥

كتب نظام الملك كتاب السياسة (سياستنامه) قبل موته بسنة واحدة ، وضمنه علمه وتجاربه وآراءه فى سياسة الملك وترتيب الدولة ، وإنصاف الرعية ، وقسمه إلى خمسين فصلاً .

وللكتاب مقدمة كتبها ناسخ الخزانة السلطانية يبين فيها سبب تأليف الكتاب فيما يأتى :

« أمر السلطان السعيد أبو الفتح ملكشاه ابن محمد أمين أمير المؤمنين أنار الله برهانه ، سنة أربع وثمانين وأربعمائة بعض الكبراء والشيوخ والعلماء أن تفكّروا فى أحوال المملكة وانظروا ماذا من السيئات فى عهدنا ، وماذا خفى علينا ، وماذا فعله السلاطين السابقون ولم نفعله ، وأعلمونا به . وكذلك اكتبوا ما تعرفون من سنن الملوك السالفين مما يتعلق بدولة السلاجقة وملكهم ، وأعرضوه علينا لنتأمّله ونأمر بعدُ أن يسير كل عمل دينى ودنيوى على قاعدته ، ويوضع كل شيء فى موضعه ، وننهى عما لا يُستحسن . فإن الله وهبنا الدنيا وأتم نعمته علينا وقهر أعداءنا فلا ينبغى أن يكون أمر فى مملكتنا ناقصاً أو يذهب عمل على غير وجهه أو يخفى علينا شيء .

« أمر بهذا نظام الملك ، وتاج الملك ، ومجد الملك وطائفة أمثالهم ، فكتب كل ما تيسر له فى هذا الشأن وعرضه على السلطان فلم يعجبه إلا ما كتب نظام الملك فقال : كُتبت هذه الفصول كما أردت فليس فى نفسى عليها مزيد . وقد اتخذت هذا الكتاب إمامى وسأعمل به . »

ويقول نظام الملك فى خاتمة الكتاب : « هذا كتاب السياسة . أمر سلطان العالم خادمه أن يكتب فى هذا الموضوع فامتثل أمره . كتب تسعة وثلاثين فصلاً على عجل ورفعها إلى السدة العالية فلقيت قبولاً . وكانت مختصرة فزدت عليها ، وأضفت إلى كل فصل ما يناسبه ، وبينتها بلغة واضحة . وقد سلمته إلى ناسخ الخزانة السلطانية محمد المغربى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ونحن على عزيمة السفر إلى بغداد ، وأمرته أن ينسخه بخط جميل ، فإذا لم يتح لى الرجوع من هذه السفرة قدمه إلى السلطان . »

وسأتكلم على الكتاب وأترجم فصوله فى المقالات الآتية إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

الجامعيون يحتربون

للدكتور زكى مبارك

كان الأسبوع الماضى من الأسابيع الدامية فى حياة الجامعة المصرية ، وكان رجعة إلى معارك الصعايدة والبحاروة فى الأزهر الشريف ، فما هى الصلات بين القديم والجديد من هذه المناوشات التى تقع فى المعاهد العلمية ؟

إن النضال بين الصعايدة والبحاروة من الأزهريين كان رجعة لأحقاد عرفتها مصر منذ عهد الفراعين بين سكان الشمال وسكان الجنوب ، وكان لهذا النضال مواسم يذكرها من شهد الحياة الأزهرية قبل أن تخضع للنظام الحديث

فما هو سبب النضال بين كلية الآداب وسائر الكليات ؟

وما الذى قضى بأن يكون للجامعيين تاريخ فى العداوة والبغضاء ؟

لقد كانت كلية الآداب منذ نشأتها محفوفة بالرعاية والعطف من جميع المعاهد العالية ، فما الذي جد من الشؤون حتى تصبح هذه الكلية المحبوبة هدفاً للعداوات ، وحتى تشن عليها الغارة بلا ترفق ولا استبقاء ؟

ما الذى جد فى دنيا القلوب حتى تثور الحرب الدموية بين طلبة الآداب وطلبة الحقوق ؟

وكيف جاز أن يصبح الحرم الجامعى مجروح الهيبة والجلال وفيه تمثال الشهداء فى سبيل الوطنية لا فى سبيل المنافع الشخصية ؟

كيف جاز أن يحترب الرفاق فى بقعة مسوّرة بالأزهار والرياحين فى مطلع الربيع ؟

وكيف نسى أولئك الشبان أن من الجريمة أن يدنسوا الحرم الجامعى بالأحقاد الشخصية ، وهو بفضل العلم لا يقل قدسية عن المحاريب ؟.

كيف نسى أولئك الشبان نعمة الله عليهم وهم يغدون ويروحون فى رياض تذكّر بأرواح الفراديس ؟

إن الجامعة لها موقع قليل الأمثال فى الشرق ، وهى تنتظر من أبنائها أن يكونوا جذوة روحية تضيء أقطار الشرق ، فبأى